الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن . . .

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٦ —

وبينما كان يتكلف ملتن المرح ، ويستجيب لدواعى الشباب فيغنى أنغام الحب ، كانت نفسه تنطوى على معان غير هذه هى فى الواقع أرب مشاعره ومهتجع خواطره ومتجه خياله ، فتراه ينظم قصيدة استهلها بقوله « إيه يالغة قومى » أشار فيها إلى رغبته فى التخلص من اللعب واللهو وعبر عن عظيم طموحه فقال إنه يفضل أن يتخذ لغـة قومه سبيلا إلى موضوع أخطر شأنا فيستخدمها إذ يسمو عقله حتى يبلغ أسباب السموات فيطلع إلى الآلهة وهم منصتون إلى ما يترنم به أبولو ؛ ثم يغنى هو بدوره فينبىء عن الأشياء الخفية التى وقعت ولم تزل الطبيعة فى مهدها .

وهكذا يصور له كبرياء عقله موضوعا عظيما لشعره فيتخيل وهو دون العشرين ملحمة كونية تدور على خلق الدنيا وتكشف عن أغراض الدين وعن وظيفته فيها ؛ وما رتضى طموحه موضوعا أقل من هذا ، ولا تقنع فطرته الشاعرة ولا عبقريته الباكرة بما يقنع به غيره من الشعراء فيتعلق خياله بأعظم ما يتعلق به خيال وأعمقه ، وماذا وراء الخليقة والآلهة فى مسارح الذهن ومطارح الخيال ؟ وإنا لنلمح فيما يطمح إليه صورة مبهمة غامضة للفردوس المفقود ، ونراها هنا إغريقية الأشباح أولمبية الآلهة ، فهل كان يفكر الشاعر الناشىء منذ ذلك العهد فى آيته الكبرى ويريد أن يتخذ من ميثولوجيا الأغريق مادتها ولباسها ؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به ؛ على أننا نجزم فى هذا الصدد بأن الشاعر كان يومئذ يشغل باله ويهجس فى نفسه موضوع عريض فخم ، ولسوف نرى أن هـذا الموضوع لن يبرح يطرق خياله ويهز نفسه حتى يتغنى بالفردوس المفقود ...

وإنه ليرتفع بشعره إذا تناول أمراً يتصل بالدين ، فيمد جناحى عبقريته ويرتفع ويحلق فى أفق لم يكن ليبلغ فى العلو مثله فى غير ما يتصل بالدين ؛ تجد مثلا رائعاً لذلك فى أنشودته الجميلة النبيلة التى نظمها سنة ١٦٢٩ وهو فى الحادية والعشرين من عمره فى عيد ميلاد المسيح وسماها « أنشودة فى صباح الميلاد » وهى إذا نظرنا إلى سنه وقتئذ جديرة بالاعجاب حقاً ، تستحق ما نالت يومئذ من عظيم الثناء ويستحق صاحبها ما اكتسب من ذيوع الصيت ونباهة الإسم . ولقد أحس كل من قرأها أنه تلقاء روح عبقرية وثابة غلابة تملأ النفس شعوراً بتكامل القوة وإعجابا بروعة الفن وافتتانا بسحر الخيال . هذا إلى براعة الموسيقى وسمو اللحن وجلال الفكرة ، ولعلها فى زعم بعض مؤرخى الأدب أجل أنشودة فى بابها فى اللغة الانجليزية كلها .

تخلص ملتن فى هذه الأنشودة من تأثير أوفيد ، وما عسى أن توحيه أوصافه وصور جماله من فتنة وإغراء ، وأراد أن يلبس معانيه لباساً روحانياً طهوراً وذلك بأن يطلق روحه من عقال الجمال اللغوى فيختار موضوعاً يواتى ما يطلب . ولقد جمع فى أنشودته هذه بين جلال الدين وجمال الطبيعة ، وكأنما أراد بذلك أن يشير إلى وظيفة الشاعر الملهم إلهاما قدسياً وإلى صفات فنه ، فجاءت هذه الأنشودة مثلا يضربه لقدرته على التوفيق بين الجمال الذى يطرب له والسمو الروحى الذى يتعلق به .

تتألف هذه الأنشودة من سبع وعشرين فقرة بكل فقرة

ثمانية أسطر ؛ ومهد لها بمقدمة من أربع فقرات ، فهي كما ترى ليست بالقصيرة وبخاصة إذا ذكرنا بعض ما يختص به شعر ملتن وهو الإيجاز البليغ الرائع فى التعبير عن المعنى المراد ، والإيحاء القوى الواسع فى استعمال الكلمة المختارة .

يصف ملتن الطبيعة قبيل مولد الطفل وبعد مولده فيبدع ويعجب ؛ يصور فرحة الكون المتطلع إلى المولود تنبعث من سمائه وأرضه لحناً جديداً تغنى به الكواكب وتجاوبها الأرض ويمتزج به غناء الملائكة ، فتنتشى أنفس الرعاة والناس ، ويحسون تآلفاً واتساقاً بين موسيقى الكون وموسيقى نفوسهم ؛ وما هذا اللحن الجديد الذى تتجاوب به أرجاء الطبيعة وتستجيب له الأنفس إلا رمز لما يبشر به المسيح وما يدعو إليه من سلام وصفاء ومحبة . ويملأ الشاعر نشيده بما أبدع من صور ، فهناك رهط الرعاة فوق المروج الخضر فى هيئتهم القروية الساذجة . وهناك الصفان الأول والثانى من قبيل أولى أجنحة من الملائكة بين لابس خوذة وحامل سيف ، ومدرع بدرع براق . ثم هناك رهط من الآلهة بين إغريقية وفرعونية ، وأنماط من الأرواح الطيبة والخبيثة ، وعدد من عذارى الميثولوجيا ومخلوقاتها من طير ووحش وجن . هذا إلى ما سوّى خياله من مباهج الطبيعة ومفاتنها ، وما ابتدع بيانه من ضروب التعبير وصور التشبيه ، وأشكال المجاز ، وألوان الاستعارة ، تنظمها جميعاً موسيقى تكافىء موضوع الأنشودة وتوافى غرض الشاعر ، وينهض كل أولئك أدلة قوية على ذوق مطبوع وفن موهوب وذهن متمكن .

وكأنما أغراه نجاحه فى أنشودته هذه بهذه الناحية الدينية فأراد أن يمكف عليها . فهاهو ذا ينظم قصيدة جعل موضوعها صلب المسيح ، وأخذ يمهد لوصف ما لاقاه من ألم هائل وعذاب مخيف ؛ غير أنها لم تصادف ما صادفته أنشودة الميلاد من هوى فى نفوس سامعيها من أقرانه فكرهها وشهد على نفسه أنه أخفق فيها ، وأمسك عن إتمامها لأنها « مطلب فوق ما يصح أن تتطاول إليها سنه يومئذ » ؛ وكان ملتن على شدة اعتداده بنفسه يرى مواطن الضعف فيما يأتى من عمل فينتقد نفسه ويتخاص من ضعفه وتلك إحدى محامده وهو من أجلها خليق بأوفر الثناء .

وفترت بعد تلك القصيدة حماسته لما هو موصول بالدين ، ونطامن طموحه إلى حين ؛ فانصرف إلى مجال آخر لم يتناوله من قبل وهو مجال الطبيعة ومشاهدها وما انبث فيها من جمال . ولعل إغلاق الكلية بضعة أشهر لتوقى الطاعون وزيارة ملتن أثناء ذلك للريف مما ساعد كذلك على إقباله على هذه الناحية الجديدة فى شعره .

نظم ملتن فى العام التالى قصيدة فى عيد الربيع عنوانها : « أغنية فى أحد أصباح مايو » فوصف شهر الورد وبهجته وما يبثه فى النفوس من مرح وشباب وسحر ، وكيف ترتدى الغابات والحمائل بردائه ، وتزهى الربى والخمائل بنعمائه ؛ ونظم قصيدة أخرى هى « نجوى البلبل » تفيض كسابقتها بإحساسه بالجمال والمرح وتعبر عن حيوية الشباب ولهوه ؛ وتنبىء بأنه لا يزال يهفو إلى الحب قلبه وتتعطش إلى لذاذاته نفسه .

وبرهن ملتن بقصيدتيه هاتين على استعداد عظيم لوصف مشاهد الطبيعة ، وتجلت فى هذه الناحية مقدرته على الإيحاء والتصوير بالكلمة المختارة تجر وراءها مختلف الصور حتى ليرى المرء بعين خياله ما يرى مثله ببصره من صور الكون ومشاهده ، وتلك موهبة تجعله يصنع بألفاظه ما يصنع الرسام بريشته ؛ وسيغدو ملتن من شعراء الطبيعة الأفذاذ فى أدب العالم كله ، وسيظل فى الأدب الانجليزى بعد شكسبير فى وصف الطبيعة الشاعر الذى لا يتطاول إلى أفقه حد ...

وظهرت دلائل ما يعتلج فى أطواء نفسه من حب فى سلسلة من الأغنيات نظمها بالطليانية ، بعد قصيدتيه الأخيرتين ، وقد كتب إلى صديقه ديوداتى يقول : « أكتب إليك ما أكتب وأنا دهش منه ! اعلم أنى أنا الذى طالما تهزأت بالحب واحتقرته وضحكت من شركه قد وقعت بغتة فى هذا الشرك » . والحق أن ملتن كان يومئذ يضطرب بين الاستجابة القوية لداعى الحب والخوف من ضلالاته حتى غلبه الحب على أمره ، فأخذ يغنى ألحانا يشهد من قرأها أنها من أجمل ألحانه وأعذبها ارتفع فيها بالحب إلى جوه المثالى وأفقه العذرى وخياله الشاعر .

وكانت الفتاة التى يشير إليها فى أغنياته الجديدة طليانية الأصل زينها نمط من الجمال الأجنبى يعد جديدا على نفسه جديدا فى ناظريه ، وقد افتتن بمحياها الأسمر وعينيها الدعجاوين ، وأخذ حبها بمجامع

قلبه ، وأحست بعوقمها من نفسه فلم تلبث أن بادلته الحب ، وطارحته أحاديث الهوى ، فقد نظم أغنياته بالطليانية استجابة لطلبها إذ قالت له « إن الطليانية لغة الحب » .

ونظم ملتن فى نفس السنة أبياتا عن شكسبير لتطبع فى صدر مجموعة من آثاره ، وتبين الناس فى هذه الأبيات مبلغ ما أوتيه من قوة البلاغة ومهارة التعبير فضلا عن أصالة الخيال الشعرى وجماله . وحسبك منه قوله : « ما حاجة شكسبير إلى صرح من الأحجار يعمل جيل فى إقامته فوق عظامه المجيدة ؛ ما حاجة رفاته إلى هرم يومىء إلى النجم ؟ يا ابن الذكرالحلى يا أيها العزيز ، ويا وارث الصيت المجيد ، يا أيها العظيم ما حاجة اسمك إلى تزكية ضعيفة كهذه ، وقد بنيت لك من إعجابنا ودهشتنا تمثالا لا يبلى ؟ إنك قد أفضت علينا من شعرك الدفاق ما يخجل حياله كل فن متعثر بطىء ، واستمد كل قلب من أوراق كتابك الذى يجل عن كل قدر ، تلك الأسطر التى تنتمى إلى « دلفى » ، تلك الأسطر الخوالد التى تركت فيه أعمق الأثر ، ولقد سحرتنا عن أنفسنا حتى أحالتنا إلى مرمر من فرط ما تخيلنا وعجبنا ! وكان لك وأنت هكذا دفين ، من عظمتك ومن أبهة ذكرك وفخامته قبر من أجل الظفر بمثله يتمنى الملوك الموت » .

وبعد نشر هذه الأبيات القوية فى صدر تلك المجموعة من آثار شكسبير دليلا على أن ناشريها كانوا ينظرون إليه يومئذ وهو لا يزال طالباً فى الكلية نظرتهم إلى شاعر بدأت تتحقق له نباهة الإسم .

ونظم ملتن فى سنتيه الأخيرتين بالكلية بضع قصائد فى مناسبات ، أهمها ثلاث مرثيات وقصيدة كتبها عن نفسه هى أقرب إلى شعر التأملات . أما المرثيات فاثنتان منها كانتا عن هوبسون الشيخ أحد موظفى الكلية وقد قضى فيها من عمره سنين طويلة ، وفيها يمزج ملتن العطف بروح الدعابة . وكانت الثالثة عن سيدة فى مقتبل العمر تدعى ليدى ونشستر أحدث موتها حزنا عميقا فى أوساط المجتمع العليا . ولقد ذاعت مرثية الشاعر الشاب ذيوعا عظيما فى تلك الناحية ، وأحبها كل من قرأها وأثنى على الشاعر من أجلها ثناء كبيراً .

أما القصيدة التى كتبها عن نفسه فكانت فى عيد ميلاده الثالث والعشرين ، وفيها يعجب الشاعر من سرعة انقضاء الزمن ، ويأسف أن يخلو ربيع حياته الأخير من البراعم والأكمام ؛ وهو بهذه الاشارة يضطغن على نفسه ، فربيعه زاخر بالحياة والنماء ، ولعله يقصد أن أكثر ماجادت به يراعته لم ينشر ليدل على وفرة ثماره ، أو لعله ضرب من الطموح ، فهو إذ يستقل ما عمل حتى يومه هذا إنما يشير إلى ما هو جامع له عزمه فى غده .

والشواهد على عزمه المصمم قائمة فى موضوع ألقاه فى سنته الرابعة والعشرين وهى السنة التى غادر فيها الكلية ، وكان الطلاب يتناظرون فى العلم والجهل وأن العلم يجلب للمرء من السعادة أكثر مما يجلب الجهل ؛ وتحدث ملتن فأفاض وأجاد فى بيان فضل العلم وقارن بين أوروبا فى عصر الظلمات وبينها فى عصر النهضة ، وأشار إلى الإنسان فى بداوته إذ كان يهيم على وجهه ويتخذ من الجبال بيوتا ويعيش بلا دين ولاقانون ولاثقافة كما تعيش ضوارى الوحش ، وإلى الإنسان فى حضارته وما ينعم به من المعرفة ويهتدى به من الدين ويتمتع به من روابط الثقافة ، واختتم كلامه فأهاب بالمستمعين أن يكتسبوا كل يوم معرفة جديدة حتى يكون شأنهم شأن الاسكندر حين بكى لأنه لا يجد أمامه عوالم أخرى تطويها انتصاراته …

وفى سنة ١٦٣٢ غادر ملتن الكلية بعد أن حصل على درجتها العلمية الثانية وبعد أن قضى فيها سبع سنين ؛ رحل عنها وإنه ليأسف على رحيله كثيرون والكل به معجبون . ولا غرو أن تتغير نظرة الأساتذة والطلاب إليه عما كانت قبل ممن كان له مثل متانة خلقه ورجاحة عقله وفصاحة لسانه وقوة جنانه وشاعرية روحه وطموح نفسه ، خليق بمن عرفوه أن يأسفوا على فرقته وأن يعجبوا بشخصيته . ولقد طلب إليه أكثر من مرة القائمون على أمر الكلية أن يبقى بينهم زميلا بعد أن تخرج فيها ولكنه لم يجد فى نفسه الميل إلى ذلك ؛ ونجد مصداقا لتغير نظرتهم إليه فيما كتبه بعد ذلك بعشرة أعوام إذ أشار إلى ما لقى من احترام على أيدى أساتذة الكلية يفوق ما لقى أنداده منه ، وإلى رغبة هؤلاء الأساتذة فى أن يبقى معهم إلى أن قال « ولقد وثقت فوق ذلك من اختصاصهم إياى بالمودة والعطف وذلك من كتبهم التى تلقيتها قبل رحيلى وبعد ذلك بزمن طويل وكلها تفيض بعطفهم على ومودتهم إلى ومحبتهم إياى » .

أما هو فما كان يذكر أيامه فى كمبردج بخير ، بل ما برح يشكو من تخلفها فى المعرفة وتمسكها بالماضى وتمودها عما كان يرجو من نهوض .

(يتبع) الخفيف